

كنعان النشرة الإلكترونية
Kana'an – The e-Bulletin

السنة السابعة – العدد 1217 16 تموز (يوليو) 2007

درويش بين التطبيع والتطريب... إليكم بعض ما أعرف

د. عادل سمارة

رام الله المحتلة

<http://www.kanaanonline.org/articles/01217.pdf>

يوم الأربعاء 22 تموز 1987، دق جرس الهاتف على مكثبي في جريدة العرب بلندن التي كنت اعمل بها أثناء دراستي: "عمو: قتلوا ابوي" كان ذلك صوت ليال كبرى ابنتي ناجي العلي.

كان ذلك بعد حرب كتابات عواملها ثلاثة:

(1) رسم كرتون لناجي عن سيدة تدعى خديجة مهران.
(2) ورسم آخر عن محمود درويش حيث كتب ناجي تحت اللوحة: "محمود درويش عضو اللجنة التنفيذية".

(3) ومقابلة أجراها حاييم هنجبي من حركة "متسبين تل أبيب" (قبل أن يصبح لبرالياً والبرالية هي طحال اليسار الإسرائيلي حيث يحتوي الموات من الخاليا) في يديعوت أرونوت الصهيونية وترجمتها مجلة "المجلة" السعودية الصادرة في لندن وأعتقد ان السيد صالح القلاب كان رئيس تحريرها او أحد محرريها.
قرأت بعدها بايام (تموز 1987) عامودا صغيرا كتبه الشاعر محي الدين اللاذقاني "من سوريا" ينفذ الفلسطينيين بشكل تسللي.
سألته ما بالك "متناولنا اليوم".

المقابلة المذكورة التي يقول فيها محمود درويش لحاييم هنجبي: "ان المتقفين الفلسطينيين جاهزين للتفاوض مع إسرائيل". وبالطبع لم يُكذب محمود ذلك.
كتبت وقتها نقداً لدرويش، فاتصل ناجي مغتبطاً:
"يا أخي واحد يحمل معي كتف"

- 1 -

كتب إميل حبيبي رداً ضدي في صحيفة الإتحاد في حيفا واضعا فيه كل حقه على القومية العربية ناهيك عن رداءة مفرداته حيث اعتبر كل قومي عربي حمار (الحمير القومية) كما يعتبر درويش اليوم كل إسلامي ظلامي، ولا أعتقد أنه يستثنى السيد حسن نصر الله. وقامت فلسطين الثورة بنشر مقالته في صفحاتها الوسطيين مزودة بصورة لعرفات ودرويش يمشيان معاً. كما نشرها بلال الحسن على الصفحة الأخيرة من جريدته اليوم السابع التي كانت تصدر في باريس. (التقيت وبلال عام 2000 في لندن، تصافحنا وفهمنا بالعيون وضحكنا وانتهى الأمر).

وكتبت رداً على إميل حبيبي في جريدة العرب، فرد محمود دون ذكر الإسم في "الإتحاد" الطيبانية والأهرام، (لا أذكر التواريخ) ومما اذكر من قوله : انه لهذه الأمور لا بد من استخدام يساري، وأن الذين يغارون من المبدعين ، وهنا اقتطف بالحرف: "كمن يستمني أمام أمه"¹. لاحظت منذ ذلك الحين أن محموداً يلجأ في الدفاع عن نفسه إلى اتهام من ينتقده بأنه "يغار" منه، هارباً من حقيقة أن جمالية الشعر بدون موقف وطني/قومي/طبعي هي بيت عنكبوت ليس إلا، بيت يهدمه الندى. ولاحظت حتى خلال الزوبعة الأخيرة أن محموداً ومن يدافعون عنه يرددون "الغيرة والحسد" كما لو كانوا تلامذة عند المستشرق العنصري الفرنسي رينان. كتب حينها رجاء النفاش لصالح محمود وكتب لصالح موقفنا محمد الأسعد وكثيرون هنا وهناك.

ذات يوم دعاني رئيس تحرير جريدة العرب ومالك ترخيصها المرحوم الحاج أحمد الهوني² وقال: أسف لأخبرك يا استاذ انني لا أستطيع الإستمرار في نشر ما تكتبه. قلت: لماذا؟

قال: لأن الفلسطينيين سوف يقتلونك لست أدري إن كان الرجل رحمه الله تلقى تهديداً، أم بمحض خبرته. خلال تلك الفترة تلقى ناجي مكالمة من درويش: لماذا تهاجمني ناجي: لا يا محمود أنكلك لأنني أحبك وحريص عليك ولا أحب أن تسقط. محمود: أنا لم اسقط، أنت الساقط الرانخ في صحف النفط (كان ناجي يحتل الصفحة الأخيرة من القبس الكويتية) ناجي: أنا ارسم بحريتي وشروطي، أما الرانخ في النفط فهو أنت وقيادة م.ت.ف. محمود: لا تقف في طريقي. انتهت المكالمة.

¹ كنت ارسلت كافة هذه القصصات مع المحامية اينا تسميل ايام كانت يسارية، ولكنها أضاعتها، لا أدري كيف ربما خافت من التفتيش الصهيوني، لذلك جمعت بعضها وليس كلها.

² التقيت الهوني عام 2000 بعد تحرير الجنوب في لبنان. فتح عينيه الواسعتين وقال: يا استاذ لليوم ما قتلوك الفلسطينية! ضحكت وتعانقنا. طبعاً لم تحرر الجنوب قصيدة "أنا عربي"، بل الظلامية القروسطية السلفية غير العلمانية... الخ.

استمرت المساجلة، ويوم 22 تموز اغتيل ناجي وهو ذاهب إلى القبس. وحال قاتلوه دون دفنه حسب وصيته في مخيم عين الحلوة، ودفن في مقبرة في لندن إلى جانب الجنود الأميركيين والفرنسيين الذي قتلوا في الحرب الإمبريالية الثانية كاعداء للأمم. نعم هناك دفن ناجي وخريطة المقبرة لديّ.

كانت هذه المقدمة ضرورية ليعرف من ينتقد محمود درويش، أن هذا الأمر كلف ناجي حياته في حقبة المقاومة "كثيرون يسمونها ثورة"، وكلفني هذا العودة من لندن سنة قبل موعد عودتي (حيث أبلغني صديق أن اسمي على القائمة، وهو حي يرزق وسيقرأ هذا)، وكنت قد أعدت زوجتي وأولادي قبلي بشهر كي ارتب اموري، وسكنت عند صديق غير فلسطيني.

أما والحال هكذا، فكيف بمن ينقد وينتقد محمود درويش في حقبة التسوية والعولمة والمساومة والفلتان بالوان قوس قزح! أقسم لكم أن هناك "ثواراً" جاهزون لقتل علي بن أبي طالب ببضع دولارات. ولا اتهمكم ولا امزح هنا. تفضلوا وانظروا الضفة والقطاع. قال تقرير سكوتلاند يارد "بعد الإطلاع على اربعين الف لوحة لناجي العلي، لم نجد ما يبرر القتل". من الذي قتل الرجل: قالوا لدينا عرب ومنهم فلسطينيون في التحقيق. ولكن لم يُنشر شيئاً!

لذلك، أنصح من ليست له دولة ولا جهاز مخابرات ولا ملياردير مقاول ولا تحبه أميركا (لا أقصد يحمل جنسية أميركية، فأنا أحملها لكنها تُداس بقدمي جندي صهيوني كل يوم رغم أننا في الدولة المستقلة وعاصمتها القدس الشريف!)، أنصحكم أن لا تنتقدوا محمود درويش، فمن المحتمل أن يقتلكم عرب كثيرون ممن يبحثون عن نصر هزيل أو لحظة تطريب تنسيهم وجع انتصار المقاومة اللبنانية عام 2006 باعتباره التقويم العربي الجديد. هذا، كما أن مستوى محمود الفني هو موهبة من الله، وليست ببطولاته الثقافية، كما هو النفط موهبة أيضاً. والغريب أن من يجنون ريع النفط يجنون ريع شعر محمود وكما لشعره سحره الفني إلى درجة لعبة "المنديل والأرنب" كما كتب أحمد حسين، فإن للنفط وهجه المالي. والحالتان وظفتا كلجنة للأمة. ربيع النفط ذهبت للسيد الغربي، وفن محمود وظف للتطبيع، النفط يحرق وهو يحترق وكذلك شعر محمود درويش.

الفن للتطبيع

لو كان لي حق الكلام لعنتت على الذين فجروا مسألة زيارة درويش إلى حيفا. لقد فقد هؤلاء الطيبون البوصلة، وبما أنهم في لبنان، كان يفضل أن يسألوا السيد حسن نصر الله: اين الخلل. ربما كان قال لهم الرجل:

لقد نفى درويش نفسه عام 1969 وعاد بتصريح ذليل على الجسر عام 1996، على أرضية تقاسم الوطن مع العدو وبحصة يسمونها في الإقتصاد "اقتصاد التساقط Trickle down economy - اي حصة تافهة)، وعليه فزيارته لحيفا حدث تافه مقارنة بجريمة التطبيع. وبما أن فتح الموضوع اعطى التطبيعيين فرصة استخدام "المنديل والأرتب" للتغطية على التطبيع، صار لا بد من إعادة ذاكرة النظيفين إلى المشكلة الأساس وهي التطبيع. فليقرأ محمود شعراً في حيفا أو على الفضائية؟ سهرة مع ما يطلبه المستمعون وتنتهي، أو "ما لا يطلبه المستمعون". فهل قرأ مثلاً "أنا عربي" أم انها مرحلة طالق بينونة كبرى وبطريقة "سلفية؟". مثلاً: غذا كان لنا حقا في فلسطين، إعطوني شاعراً تافهاً في الكيان كتب بيتاً يؤيد حق العودة، فلماذا يتنازل كثيرون من هكذا؟

إن معالجة اي أمر من هذا الطراز، إذا لم تقم على فضح التطبيع وتنقيف الناس بمخاطره، إنما هي إضاعة للبوصلة، والجنة مبلطة بالنوايا الحسنة. وضع المعترضون انفسهم في خانة المعاتب وهو موقع اقل مع أنهم أعلى. ما الذي يحدث لو زار حيفا- وقد زارها مرات عدة في العلن. وما اكثر الفلسطينيين الذين يزورون الداخل (من مناطق الإحتلال الثاني إلى مناطق الإحتلال الأول) في السر وليس لقراءة الشعر فهم Very Important Person/s VIP!

الكثيرون ممن نقدوا محمود لم يعرفوا بعد أنه رحل طوعاً عام 1969. ولذلك سقطوا في القول انه نُفي. منذ تلك اللحظة، كان فك الإرتباط بين مستوى محود الفني وبين الوطن. تحول الوطن إلى مكان، فالوطن واحد، والأماكن متعددة. كان يجب أن يتحول الوطن إلى مكان ليفقد القداسة وليسمح بتقاسمه مع العدو، بل التنازل عنه للعدو تحت تسميات منها الحداثة وما بعدها ومنها تجاوز التخشب ومنها فهم الظروف الموضوعية وموازين القوى... الخ وأخيراً "الوطن الرمزي". قد يكون محموداً قرأ شيئاً ما عن راس المال الرمزي ل بودبير. فالرمزي عجيبة سهلة الإستخدام لدرجة عدم وجوده.

لعل الخلل لدى من نقدوا درويشاً انهم أصيبوا بدوار افقدهم النقاط التطبيع. فدرويش كما كثرة من قيادات المقاومة ومنتقفيها جاؤوا إلى الوطن المحتل من مطهر أوسلو. وهنا قاصمة الظهر. حققوا العودة للقيادات وبقي الشعب في الشتات. وعليه، طالما عاد محمود مختوماً كغيره بخاتم الجسور وبالعبرية تحديداً، تصبح زيارته لحيفا أمراً عادياً، ويصبح محمود شخصاً نطبيعياً عادياً، وهو متصالح مع الأمر، فدعوه ينام!. خاتم أوسلو يعني الإعتراف بالدولة الصهيونية وشطب حق العودة، واعتبار فلسطين أرض الميعاد وارضاً لليهود. ولأن معظم الذين كتبوا نقداً لمحمود هم من الأدباء، كان عليهم أن يلتقطوا الرمزية في الأمر. فليس شرطاً أن يحتوي خاتم أوسلو كلاماً صريحاً بإسقاط حق العودة، وأحياناً تكون الرمزية اقوى من اللغة.

هنا مربط الفرس "او الحصان الذي تركه محمود وحيداً" الشعب الذي بقي في الشتات. نعم هناك من يعتبر رفض التطبيع قولا قديماً لا قيمة له، ومن يعتبر حق العودة حملاً ثقيلاً لا مستقبل له، ومن يعتبر القومية العربية عبئاً شوفينياً لا شفاء منه.

لا بأس، فليقل كل ما يقول. والحقيقة انها لولا هذه المقدسات المحرمات لما كان لامرء مثلي ان يكتب كلمة في هذا الأمر. فذاكرة الأمة "اقصد الطبقات الشعبية - الأكثرية" لم تُسقط حق العودة، وضمير الأمة لم يعترف بالكيان الصهيوني، والحلم القومي العربي الوجدوي يداعب الطفل وهو يناغي أمه، والشيخ وهو في الرعشة الأخيرة. لا بل إن دخول فلسطينيين في التطبيع سلم القضية للأنظمة العربية وسحبها من يد الأمة. ولأن القضية عربية فقط، وهذا واضح من دخول الأنظمة في كل جزئية فلسطينية، وبرضى الفلسطينيين، فكان يجب أن تبقى شعبية عربية لا رسمية.

لا بد أن نعترف لمن يفاخروا بالاعتراف بالكيان أنهم يبذلون جهداً جباراً في هذا المستوى. ولكن إذا كان هؤلاء على هذا النحو من الإفتتان بسادتهم، فلماذا يأخذون علينا الإفتتان بموطننا؟

إن المعركة بيننا وبينهم، قبل كونها ضد الإحتلال، فهم يقفون في الصف الأول ضد الأمة.

مرة أخرى، إن المعركة اليوم على ابواب الطبقات الشعبية حيث يتم التجهيز للإجهاد عليها، سواء في تمسكها بحق العودة وبالوحدة والتنمية الإشتراكية ولولا أن هذه المعركة كبيرة إلى هذا الحد لما كان من الضروري ان نكتب. وعليه، فهذا الحديث ليس موجهاً ضد فرد كائناً من كان، بل هو دفاع عن أمة.

لن أورد هنا على أحد ممن كتبوا، وقرأت لهم، باسمائهم. ولكن هناك حقائق لا بد من تثبيتها، ليس للرد على من كتبوا، ولكن لتعقيم ذاكرة ووعي الجيل الشاب من العرب. محمود درويش خرج من فلسطين عام 1969 بعد احتلال، دون نفي، لم يطرده أحداً من سكان الكيان الصهيوني. أسوق هذا قبل أن يزعم أحد أن هناك قضية كانت تطارد محموداً، فلم يسبق أن قال محمود أو غيره أنه هرب خوفاً من سجن. لذلك أرجو الذين يسمون تواجد محمود خارج فلسطين "منفى" ان يصححوا معلوماتهم كي تصحح مواقفهم. هذا أمر مهم يا عرب. نحن في الأرض المحتلة من الطبيعي أن نتجول فيها لأن تجولنا لا يتعلق بالإعتراف بالكيان أو عدمه، لأن الخيار أماناً إما قبول الأمر الواقع أو الرحيل كما فعل محمود درويش، لذا قررنا أن لا نرحل³. ولكن اي عربي بمن في ذلك الفلسطينيين إذا ما دخل الأرض المحتلة من نقاط الحدود فهو داخل كمعترف بالكيان الصهيوني. والإعتراف هو ببساطة شطب حق العودة، والإقرار بهيمنة الكيان (عاجلاً أم آجلاً) على الوطن العربي.

³ إثر السجال قبيل اغتيال ناجي العلي اتهمني إميل حبيبي بأنني هارب من النضال، وكان يعلم أنني أكمل دراستي، حبذا لو كان متمسكاً هكذا بالنضال لقبالتها وأثبتت عليه.

براءة اختراع الإعراف

دُعي محمود درويش لزيارة حيفا من قبل الحزب الشيوعي الإسرائيلي. والحزب يعتبر الأمر عادياً تماماً لأنه يحمل تراث الشيوعية التحريفية السوفييتية التي اعترفت بالكيان بعد الولايات المتحدة. وقد اعتبرت الشيوعية العربية آنذاك الإعراف شرفاً أممياً، وبراءة اختراع عجز "المثقفون القوميون العرب، وبعض الشيوعيين عن فهم عمقها اللامحدود". أسوق هذه الحقيقة لكشف احد جذور التطبيع.

دعونا نفترض الهبل وحسن النية والتخلف النظري وحتى المعلوماتي لنقول أنهم تورطوا في هذا لهذه الأسباب مجتمعة أو منفردة. ولكن، أليس حرياً بعد كل ما رآه العالم من هذا الكيان أن يتوقفوا على الأقل، إن لم نقل أن يعتذروا، بل أن ينتحروا اعتذاراً! ليقروا ما كتبه إيلان بابيه مؤخراً. أما الإصرار منهم ومن غيرهم على هذا، فأمر هو الخطر بعينه! لذلك اعتبر من هم من اهل هذا الحزب أن زيارة محمود لحيفا بأنه "من أهل الدار اصلاً...". علينا التذكر أن محموداً من أهل دار الحزب المذكور حيث بدأ حياته عضو في هذا الحزب. و"أن رفض الزيارة هراء" وخشية من اختراق مقاطعة الدولة الإسبانية" و"لأنهم ما انفكوا يستهلكون بعصبية قبلية حطاماً من الذرائع التي لا تمت إلى الحقيقة بصلة" و"فما من إذن يحتاج إليه الشاعر ليحلق في فضاء الشعر والمكان...". لكن من كتب هذا لم يذكر مفردة التطبيع قط. فكان لا بد له أن يراوغ. ولكن نعترف له، أنه قد اسقط حق العودة بجدارة سائراً على درب إميل حبيبي الذي بدأ حياته شيوعياً معادياً للقومية العربية ومعتزلاً بالكيان، وأنهاها متتكرراً للشيوعية محتفظاً منها بمعاداة القومية العربية ومعتزلاً بالكيان وحاملاً وسام دولة الكيان حيث قلده إياه اسحق رابين الذي "كسر ايدي أطفال الإنتفاضة" وحاملاً كتاب الحسن الثاني الذي يبحث حتى الآن كل أهل المغرب عن عشرين آلاف ضحاياه المخطوفين، وبقي حتى رحل "رئيس لجنة القدس".

أعيد كلاماً قصيراً مع سمير أمين، العبقرى المتواضع حيث التقيته في باريس عام 1995 بدعوة من مؤتمر لمناهضة العولمة.

في شخصية سمير أمين الكثير من ناجي العلي، الهدوء والتواضع، والطيبة. بادرني مبتهجاً بأنه سيزور فلسطين ويتحدث في جامعة بيرزيت.

إحترت لأول وهلة: يا له السماوات، هل سمير أمين بسيط إلى هذا الحد! ماذا أقول للرجل؟ تذكرت ما كتبه ماركس في مقدمة الحرب الأهلية في فرنسا عن ما قامت به البرجوازية الفرنسية المهزومة والخائنة بما معناه "الأمة كالمرأة لا تُغفر لها خطيئة أول من يوقع بها". قلت: ولكنها تحت الإحتلال!

قال: هي مناطق محررة وأنا مدعو من أساتذة جامعة بيرزيت.

قلت: محررة من الحرية، من قال لك انها محررة؟ سوف تمر من تحت أختام جندي صهيوني قد يهينك بقدر تراثك الفكري. ألا تعلم أن في بيرزيت قاعدة للتطبيع؟

لم يجادل الرجل، وأدرك أن من دعوه هدفوا إسقاطه والإيقاع به، والغى الزيارة. فهم يريدون لكل عربي أن يسقط في التطبيع. كتبت هذا ونشرته في مجلة كنعان، ليكون جزءاً من (ال CV) الذي يُرضي أكاديميا التطبيع عني.

تحدثنا طويلاً، وكان ملخص حديثي أن بوسع الناس قراءة سمير أمين دون أن يسقط هو نفسه في التطبيع، وإنتاج سمير أمين، مع محبتي للشعر، بكل إنتاج شعراء الأمة العربية منذ الزير سالم وحتى زير النساء في اللحظة. فالشعر يخاطب الجزء البدائي من الناس، وأعترف أنه موجود لديّ.

كتب آخرون واصفين من رفضوا الزيارة بأنهم انطلقوا من "أنايات وذاتيات فردية"، والبعض اعتبر الثقافة "المربع الأول للقضية" وكأننا في سوق عكاظ آرامي أو من أتباع هنتجتون!. وبعضهم وصف رافضي الزيارة بأنهم "صبيبة نبعت اصواتهم من النظر إلى القضايا الحزبية الضيقة والمصالح الشخصية".

والطريف أن كثيراً ممن كتبوا، ليسوا شعراء ولا ينافسوا درويش على شيء. والبعض اعتبر المعترضين من أنصار حماس، "الحملة في العمق ضد الثقافة الوطنية"، متناسياً أن حماس ربما تتمسك بالآية الكريمة "والشعراء يتبعهم الغاؤون، ألم ترهم في كل واد يهيمون وأنهم يقولون ما لا يفعلون" وها هم ينكرون ما يقولون، مثلاً، انا عربي، لم يعد عربياً! وانهم " ... من أخص خصائص الأصولية، دينية كانت أم قومية"، وتفاخر "بأن درويش طالما فتشه جنود الإحتلال على المعابر".

في هذه الواقعة، استذكر الراحل جوزيف سماحة. هاتقني من لندن، وكان في حماسة أمضى من حماسة حماس. كان قد قرأ ما نشرناه في "كنعان" لأحمد حسين نقداً لمحمود درويش في كنعان العدد 96 ايار 1999 (عنوان المقالة: أنت كما تبدو الآن)، . لم ألتق جوزيف سماحة قبلها ولا بعدها، ولكنني ما زلت منطبعاً بحماسته لموقف أحمد حسين. طلب مني كتابات أحمد حسين، وهاتفه. ومؤخراً رحل جوزيف سماحة ولم يرحل التطبيعيون بعد! آنذاك، تطوع حسن خضر واصر على ان يكتب دفاعاً عن درويش لأنه يرى أن درويش "قيمة وطنية عليا يجب أن ندافع عنها" نصحته بأن لا يتعرض للسان أحمد حسين، لكنه أبقى وكتب رداً نشرناه له في كنعان العدد 97 من كنعان تموز 1999، ورد عليه احمد حسين في كنعان العدد 98 في ايلول 1999، وكان ما كان له.

حينها توثب وزير ثقافة فلسطيني ليغلق كنعان بعد أن تشكى له درويش، فقيل له: "رخصتها من إسرائيل" فصمت!. فصاحب الرخصة من فلسطيني 1948.

مرة أخرى، لو كان لي القرار لقلت لمن اعترضوا على الزيارة، أهملوها تموت. ولكن إعجابهم بمحمود وتكبيره على الوطن والقضية دفعهم لعدم بلع الموقف.

ملاحظات بالصدفة: اقول صدفة لا مؤامرة لأن هذه الزيارة تأتي في الوسط بالضبط، بعد اسبوع من ذكرى اغتيال غسان كنفاني 8 تموز، وقبل اسبوع من ذكرى اغتيال ناجي

العلي 22 تموز. ويا لهول المفارقة بمناسبة انتصار لبنان على الكيان فما قال شاعر الراية
والتطريب حرفاً بالمناسبة!

-
- الآراء الواردة في المقالات لا تعبر بالضرورة عن رأي إدارة الموقع أو محرري "كنعان".
 - عند الاقتباس أو إعادة النشر، يرجى الإشارة الى "كنعان".
 - يرجى ارسال كافة المراسلات والمقالات الى عنوان "كنعان" الالكتروني: mail@kanaanonline.org
 - Please write to us or send your contributions to: mail@kanaanonline.org.
 - To visit Kana'an website, please go to: <http://www.kanaanonline.org>.
 - To subscribe to our mailing list, please send a blank e-mail message to arabic-join@kanaanonline.org.
 - To unsubscribe from our mailing list, please send a blank e-mail message to arabic-leave@kanaanonline.org.